الثقافة العربية في أفريقيا بين الواقع والطموح

د. محمود أحمد الديك
قسم التاريخ – كلية الآداب
جامعة الفاتح

تعرف الثقافة بأنها كافة الموجدات المادية والأخلاقية والروحية وبما تشمله من معرفة ولغة ومهارات وسبل التفكير وأنماط السلوك، وهي مخزن التجارب الإنسانية الفكرية المكتسبة على مر العصور . إن ما تعرضت إليه شعوب القارة الأفريقية خلال مراحل الاستعمار من مسخ وتشويه حضاري للهوية الثقافية، لم تتعرض له شعوب أخرى التي أخضعت للاستعمار الحديث، بنفس أنماطه وأشكاله. وادعت بعض الأقلام الغربية في دفاعها عن المرحلة الاستعمارية الأمس واليوم أن نشاطها كان تم تحت شعار تمدين وتحضير الشعوب وهو مبرر ينم عن تجاهل واستخفاف واحتقار لحضارات الآخرين. وإن اجتياح الاستعمار الغربي الكاسح للقارة الأفريقية لا يمكن فهمه وتفسيره إلا وفق الظاهرة (الميركنتلية) وهي استغلال لمقدراتها وخيراتها ، فهذا الضرر الاقتصادي الذي اضر بتطور القارة الأفريقية طبيعيا وعطل قدرتها التنموية لا يقل خطورة وضرراً ما طال ونال من الحياة الثقافية والحضارية بشكل عام.

والصورة تبدو قاتمة حين نستمع إلى نشرات الأخبار ونشاهد الفضائيات والضخ الإعلامي الموجه نحو الشعوب الأفريقية بشكل خاص؛ قد يصيبنا الإحباط، ونحس أنه ليس أمامنا سوى الخنوع وفي ظل هذا الوضع والظروف التي يمر بها العرب الأفارقة في المنظومة العالمية قد تجبرهم على وطأطأة الرأس واستيعاب العولمة وما تحمله في أحشاءها من غث وسمين. أما حين ننظر في داخلنا؛ فسوف نرى ما يعبّر عن أعماق العالم، سوف نرى روحاً إنسانية توّاقة إلى الحرية المطلقة. وحين نتواصل مع مقهوري العالم؛ ندرك أهمية بلورة أفكارنا ورؤانا، وأهمية العمل

الـــمشترك لتحقيق آمالنا. وحين نسرد حكاياتنا، ونقرأ ونفهم التاريخ بدقـــة ووعي؛ ندرك أن الاحتلال والاستعمار المتلون، لن يكون قدر الشعوب، كما ندرك أيضاً أن النصر ليس قدراً حتمياً، للـــشعوب التـــي لا تقـــرأ واقعهـــا وتحدياته بدقة في سبيل النهوض واللحاق بركب التقدم والتطور.

ويقال أن تاريخ الصراع الإنساني في القرن التاسع عشر تركز على صراع القوميات، وفي القرن العشرين كان صراع الإيـــديولوجيات، أمـــا القرن الواحد والعشرون فيعتقد انه صراع سيكون صراع الثقافات، ومهمـــا يكن فإن هذا التصور قد يجانبه الصواب وقد يكون محض خيال أو توجس من الجانب الأضعف، لكن الواقع الدولي المعاش يضع جزءاً كبيراً المسائل الثقافية في الرهان ضمن المتغيرات والمفاهيم التي تعصف بالمناطق الهشة القابلة للاحتواء. إن فكرة عقد المؤتمرات الدولية لها دلالات ومعاني كبيرة في إعادة تقييم المراحل التاريخية للثقافة العربية في أفريقيا، ووضع مناهج وسبل تتلائم والتغيرات الدولية المتسارعة التي يشهدها العالم وتتـــأثر بهـــا القارة الأفريقية ، وخلافا لما هو معروف ومدروس وما تحقق من انجـــاز حضاري عربي إسلامي أفريقي مكتوب ومحفوظ في الـــذاكرة التاريخيـــة، نعتقد أن المرحلة توجب علينا تجاوز الناحية الوصفية والتمجيديـــة لتـــاريخ الثقافة العربية الإسلامية ودورها في الحقب السالفة، بل يجـــب أن يكـــون الماضي التليد حافزاً للنظر إلى الأمام، فخورين بالرصيد الحضاري الثقافي للأجيال السابقة الذي أسس على قواعد وبنيان رصين. وهو الـــذي يـــشكل مرحلة جديرة بالدراسة والبحث لبناء حياة ثقافية شاملة لأفريقيا، التي هـــي مزيج من القيم الموروثة في الثقافة الأفريقية ومدى انصهارها فـــي بوتقـــة الحضارة العربية الإسلامية، ومن عناصر الترابط الحضاري مـــن خـــلال الحراك البشري الاجتماعي الذي يعزز ويقوي الصلات من خلال التـــزاوج والمصاهرة بين سكان القارة، ومن المهم تأكيد علاقة حسن الجـــوار الـــذي يترتب عنه نمواً في النشاط الاقتصادي عبر خطوط تجارة القوافل القديمـــة التي ربطت شمال القارة بوسطها وجنوبها حتى مطلـــع القـــرن العـــشرين والعمل على إحياءها بأساليب وطرق مواصلات متطورة.

وتأسيساً لما نرى ويحدث في العالم الأوربي المعاصر من طرق ومناهج في التفكير لبناء رؤية شمولية من خلال المؤسسات الثقافية واللغوية في مواجهة العولمة التي ترتكز على العامل الاقتصادي وتستهدف العنصر الثقافي المؤثر في حياة الناس اليومية، نحن في مسيس الحاجة لتبني ذلك النمط الذي يخدم قضايانا ويحقق أهدافنا المشروعة في ركب الحضارة والمشاركة في بنائها.

إن تدارس قضية الثقافة العربية في أفريقيا بين الباحثين والعلماء شيء إيجابي وطبيعي، فهولاء أكثر الفئات الاجتماعية تفهماً وإدراكاً لخطورة هذا الموضوع ، ونعتقد أن دور مؤسسات الإتحاد الإفريقي مهم في هذه المرحلة، بل هو مكمل ومنفذ لكثير من البرامج التي ستطرح كمنهج عمل لبناء مشروع ثقافي بديل يلبي متطلبات المواطن الأفريقي في هذا الجانب. ومن خلال هذا الصرح العملاق (الإتحاد الأفريقي) وفروعه ينبغي التنسيق مع متخذي القرار السياسي بحيث توضع التوصيات والمقترحات والقرارات موضع التنفيذ وفق برنامج مدروس علمياً وعملياً يضع في حسبانه وحساباته العامل الزمني والموضوعي والإمكانات المادية والفنية والبشرية التي ستخصص وتنفذ ما يتفق عليه .

وحين ندرس ونحلل الواقع الثقافي العربي منذ بدء الهجمات الاستعمارية المتكررة وحتى وقتنا الحالي نجد أن الهوية والذاكرة التاريخية الثقافية لأفريقيا هي الهدف الأساسي المباشر ، وبحكم نظرية التمدين والتغير، رفض الاستعمار الاعتراف أو حتى التعايش مع القيم والثقافات والموروثات الأفريقية السائدة، بل أنه حاول بصورة جدية استبدالها كما هو واضح بقيم غربية مغايرة لحياة الأفارقة المتعارف عليها منذ قرون قديمة . وبالتالي تحولت بعض الثقافات الأفريقية إلى كم مهمل ، محكوم عليه بالاختفاء الكامل في مصادره وأصوله وقيمه ولا مستقبل له ، وبات معيار التقدم والتطور عند بعض المثقفين المستغربين هو التغريب والتقليد الأعمى للغرب ، والابتعاد عن الأصالة التي يصفونها بالموروث المتخلف ويجب تجاوزه..

فمرحلة النضال ومقاومة الاستعمار المباشر خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، لا شك أنها كانت ضرورة وواجب وطني وقومي من جانب، ولكنها من ناحية أخرى شغلت الأفارقة لتسخير

الإمكانات والقدرات في معارك التحرير والاستقلال كان الأولى بها محاربة التخلف والركب في سير التطور والتقدم ، فهذه المرحلة تعتبر ضمن المسؤولية التي يجب أن يتحملها الاستعمار الأوربي التي أعاقت الأفارقة في الاهتمام بالتطور والبناء، فهذه الفجوة الحضارية، وصفتها الدوائر الغربية (بالفراغ الحضاري).

ولكن مسؤولية وواجب الأفارقة في الدفاع عن وجودهم لم يثنهم من التحدي – رغم قلة الإمكانات– وتحقيق المكاسب السياسية في الحصول على الاستقلال وتحسس المشكلات ومواجهتها. وبناء على نظرية ملء الفراغ أدرك الاستعمار الغربي منذ أن تبث إقدامه، أن المناخ بات مناسبا جدا للتغلغل الثقافي، من خلال إرساء مبدأ الازدواجية في اللغة والثقافة المسيطرة مقابل إهمال واحتقار للثقافات السائدة.

لقد ناضل العرب والأفارقة في مختلف ربوع القارة ضد المعتدي الأوروبي ، وقاوموا سياسته العنصرية من فرنسة وطلينة، وامتزج الدم العربي بالإفريقي في ملاحم بطولية تعج بها كتب التاريخ ، فالروابط التي جمعت العرب بالأفارقة تعددت وسائطها، وكان للإسلام تأثير قوي في تعزيز ونشر الثقافة العربية الإسلامية في مجاهل أفريقيا ، فالدعوة الإسلامية لم تجد صعوبة في طريقها إلى مناطق شرق ووسط وغرب أفريقيا منذ القرن الأول الهجري في خط متوازي لشمال أفريقيا. إن دخول الإسلام إلى هذه البلدان وما حمله معه من معاني وقيم أخلاقية ، تتمثل في مبدأ لم يعهد في تاريخ الحضارات وهو الحرية والمساواة والعدالة ونبذ سياسة التمييز ، وهو سر نجاح الدعاة والمبشرين ، وتجار القوافل ، وطلاب العلم ، دون أن يكلفهم أموال باهظة وتضحيات جمة كما فعلته أوروبا ، وهذا السلوك والمنهج للعرب المسلمين قد سهل لهم اندماجهم مع الشعوب الأخرى فلم تكن هناك نظرة استعلائية . وكان هذا السلوك والأسلوب المبني على احترام وتقدير الآخر قد وجد قبولا من الأفارقة وأعتقد أنه عنصر وعامل متجدد في العلاقات العربية الإفريقية على مر العصور لأنه ينبع من أصول حضارية مقنعة. فقط علينا أن نجلس معا ومن خلال الحوار المباشر وأسلوب الإقناع، واتباع القدوة الحسنة، سنحقق تقارب وتواصل أفضل لفهم ووعي لمشاكلنا العالقة والبحث عن حلول لها[1].

إن صورة المسلمين اليوم يعتريها الكثير من التشويه والتحريف المتعمد من قبل الغرب، وهذا خلاف لما حدث في الماضي، لقد اعتنق معظم السكان الإسلام في أفريقيا طواعية وتحمسوا له ، لأنهم وجدوا فيه الخير والسلام والتطور والاستقرار ويلبي متطلبات وحاجات الإنسان، يقول ستانلي Dean Stanly في هذا السياق : " لا يمكن أن ننسى أن الإسلام هو الديانة السامية الوحيدة التي أدت إلى تقدم وتطور قارة أفريقية الواسعة" . ويضيف الكاتب الفرنسي جوى Gouuilly قوله: (إنه بالإسلام يبدأ العصر التاريخي لأفريقيا السوداء ، .. وهو العصر الذهبي ففي العصر الوسيط برزت الخصائص المميزة للحضارة الأفريقية الوطنية في تلك البلاد، وقامت حكومات ونظم متقدمة ، ويمثل الإسلام القوة الدافعة المحركة التي خطت بالحياة الإنسانية في غرب أفريقيا نحو المعارف المختلفة من اداب وعلوم وفنون ، كما أمدها بوسائل المعرفة من علماء ومدارس وجامعات) . والإسلام لم يلغ الديانات الأخرى السائدة في أفريقيا ولم يعمل على مواجهتها من منطلق ومبدأ "لا إكراه في الدين". بل أن الإسلام استوعب الثقافات والديانات الأفريقية وكان تعامله معها يمتند على الحوار والتعايش في احترام متبادل[2].

وإذا تفحصنا المصادر التاريخية الأولية التي تكاد تكون الوحيدة التي دونت تاريخ السودان، فسنجدها تتمثل في كتابات العرب المسلمين منذ القرن الثامن الميلادي. بينما بدأ الاهتمام بكتابة تاريخ أفريقيا من قبل الأوروبيين عند مطلع القرن الخامس عشر الميلادي !! وفق رؤية ومنهج يتطلب مراجعته ودراسته. يقول جون لويس تريو Jean louis Triaud إن الكثير من الأفارقة ينظرون إلى الإسلام على أنه العنصر الأساسي الذي كون ووحد الممالك السودانية في العصور الوسطى . ويقول أيضاً إن الإسلام أعطى للأفارقة الفرصة والوسيلة لكتابة تاريخهم ، وأن للعرب الفضل في ربط شعوب الصحراء وبلاد السودان بشعوب البحر المتوسط ، وإن الإسلام أدخل التقنية المتطورة آنذاك إذ عرفت أفريقيا نباتات جديدة ، وتكونت النخب .

وهذا الاختلاط والاحتكاك الاجتماعي الثقافي، كانت اللغة العربية وسيلته وأداته، فهي لم تهضم حق اللهجات الأفريقية المحلية، التي دخلت طواعية وانصهرت في بوتقة الثقافة العربية الإسلامية بشكل تدريجي

وطوعي. يقول جيمس ريتـــشاردسن James Richardson عـــن تـــأثير العرب في أفريقيا : " إن أكبر عمل أسدوه(العرب) إلى تلك الجهات وأكثـــر من كل هذا أدخلوا ونشروا الإلمام بالكتابة والقراءة " .

فهذه الصور الإيجابية التي تظهر الوجود العربي المضيء في العديد من بلدان القارة في كثير من الجوانب الحـــضارية الإنـــسانية، اصـــطدمت بالمشروع الغربي الذي استهدف فـــصل عـــرى التواصـــل بـــين العـــرب والأفارقة، ولا هم له سوى إعادة الـــشعوب الإفريقيـــة للجهـــل والتفـــرق ومحاربة بعضها البعض لكي يلهيها عن مسايرة ركب الحضارة.

ومن أجل تحقيق هذا المشروع، بذل الأوروبيون قصارى جهـــدهم في:

أولاً / تقسيم القارة إلى مناطق نفوذ بين القوى الاســـتعمارية إبـــان القرن التاسع عشر ، وإضعاف الممالك الأفريقية الإسلامية الكبرى التي كان له أثر كبير في تجزئة كيان المجتمعات ، وضياع الهويـــة والبحـــث عـــن الخلاص.

ثانياً / التشكيك في وجود ثقافة أفريقية خالصة تلتقي فيها الجماعات، ومن هنا عمل المستعمرون على سياسة تدمير ما هو موجود لإحلال ثقافتهم الدخيلة محله ، وقد انتهج المستعمرون المستوطنون أسلوب تذويب البنيـــان القبلي وتفتيته في دويلات قزمية في أفريقيا ، باعتباره الرابط الأساسي الذي يجمع أبناء القارة الواحدة، وترتب عنه استحداث حـــدود وهميـــة تفـــصل الروابط الاجتماعية لأفراد القبيلة الواحدة، وتجعلها في دوامة الصراع إلـــى اليوم.

واتبع الاستعمار برنامجاً وأســـلوباً متقنـــاً فـــي تغريـــب الـــشعوب الإفريقية، وفرض المستعمر قوانينه، ولغته، وعاداته ونمطاً حياتيـــاً جديـــداً على الشعوب الأفريقية، وهو لا يتناسب وأصول الثقافة الأفريقية. بـــل إن المستعمر لم يمنح لهم أي حقوق أو خصوصية ولم يحترم ثقافتهم. وبالتالي اصطدم بشعوب لها شخصيتها المتميزة والمتمثلة في القوميـــات الأفريقيـــة والتاريخ العريق، كما استهدف المستعمر اللغات المحلية وطعن في تعدادها والإقلال من أهميتها، ضمن برنامج مدروس وهو "سياسة فرق تسد "[3].

اللغـــات الأفريقيـــــة

إن الحديث عن اللغات وتطورها وتأثرها بغيرها، يدفعنا إلى دراسة الاحتكاك الحضاري بين الشعوب، لفترات زمنية طويلة وموغلة في عمـق التاريخ ثم تتبع التواصل الثقافي في ظل الظروف والمتغيرات التي فرضت على القارة الأفريقية. فالعرب في منطقة شبه الجزيرة كانت لهـم صـلات قديمة ومتينة مع منطقة شرق أفريقيا؛ فهجرتهم وإقامتهم في ساحل إفريقيـة الشرقي كانت قديمة جداً، نظراً للقرب الجغرافي والروابط التجارية التـي تربطهم بالضفة المقابلة. فقد أكتشف المغامرون من البحارة العرب، بحـر الزنج، وكثر ترحالهم إلى الشاطئ الغربي للمحيط الهندي، لمبادلة منتجـات آسيا بثروة أفريقيا من عاج وصمغ وغيرها. وهـذا الاتـصال التجـاري والاستقرار نجمت عنهما بالضرورة، عمليات تبادل ثقافي وتـأثير وتـأثر الثقافات بعضها ببعض، فقد ادخلوا الكثير من المفردات والصيغ والتراكيب اللفظية واللغوية في المناطق التي استقروا بها. فالمهاجرون العرب غالباً ما استقروا بصورة دائمة في المناطق التي وصلوا إليها، وقد حمل التجار معهم الأساليب التجارية غير المعهودة في البلدان الأفريقية؛ مثل إبـرام العقـود، والأمانة في التعامل والمشاركة، وضرب العملات واستعمالها، واسـتخدام الموازين والمقاييس، ونظام المقايضة ونحو ذلك.

ولم يجد التجار العرب صـعوبة فـي التعامـل والانـدماج مـع المجتمعات الأفريقية، وهذا يكمن السر الحقيقي في عدم شعورهم بالغربـة، فهم لم ينعزلوا عن السكان، ولم يشكلوا أقلية مترفعة. وهذا واقع معاش حالياً فالإفريقي أينما حل في مختلف بلدان القارة الأفريقيـة لا يجـد غربـة أو صعوبة في الاندماج في وقت وجيز جـداً أو التعـايش بـاحترام لأدميتـه كإنسان. وذلك يعود لاستمرار الاتصال القديم عبر شبكات الطرق التجارية المتشابكة بين المراكز والمحطات التجارية التي تقرب المسافات . وأصـبح انتقال السكان بين الشمال والجنوب والشرق والغرب جـزءاً مـن حركـة المجتمع نتج عنها تطور في النشاط الاقتصادي والاجتماعي والثقافي .

وبنظرة سريعة على الدراسات اللغوية في القارة الإفريقية نجـد أن الصلات بين اللغات الأثيوبية ، والعربية القديمة ، " السبأية والحميريـة " ، ترجع إلى قرون موغلة في القدم ، فقد وجد تشابه كبير بين اللغات السامية

الأثيوبية واللغة العربية (القديمة) من ناحية التركيب ، والبناء الصوتي وفي القواميس ، وهي توضح أن تلك الصلة كانت قوية ، وذات جذور تاريخية بعيدة ، وتختلف هذه الوشائج اللغوية من لغة لأخرى من حيث عمقها وقوة بناءها ، فنجد أن أوجه التشابه تقوى بين لغة جعز وبين العربية (القديمة) ، وأحياناً يصل هذا التشابه إلى حد التطابق .

ويعتقد علماء اللغات أن اللغة السامية السبائية ، وتعرف بلغة الجعز التي ظهرت في منطقة نجرة ، من أقدم اللغات التي انتقلت بواسطة العرب ، وأصبحت فيما بعد مقصورة على الشؤون الدينية ، بعد ظهور اللغة الأمهرية في القرن الثالث عشر الميلادي ، التي صارت لغة الدواوين. فاللغة الأمهرية ، تعد إلى جانب اللغة العربية أحد اللغات السامية حتى الآن.

وتعتبر اللغة الأثيوبية ، واللغة العربية الجنوبية ، لغتين شقيقتين ، وهما حسب التصنيف اللغوي تمثلان اللغة السامية الجنوبية . ومن المعلوم أن الأثيوبية ، اعتمدت الخط المسند في الكتابة ، أي أن وجود الكتابة العربية الجنوبية ، أستمر في الكتابة الأمهرية مع إدخال تعديلات طفيفة عليها بخصوص حركات الحروف .

لقد أثبت المستشرق الألماني "روسلر" ، في دراساته عن لغة الأمازيغ ، قواعد ومفردات كرس لها حياته ، وتوصل إلى أن هذه اللغة ، قريبة من الأكادية ، التي سادت في العراق منذ بداية الألف الثالث ق.م ، أي أنها شرقية الأصل . ووضع لإثبات نظريته ، أعداداً كبيرة من الجداول المقارنة ، بين فيها تصريفات الأفعال ، الأمازيغية والأكادية ، والمفردات المتشابهة ، والاشتقاقات في اللغتين . كما حاول أن يدرس ، موجات الهجرات ، وبعد ذلك تلمس آثار الأمازيغية وأوضح أن أقدم العلاقات بين بلاد المغرب (غرب وادي النيل) وأفريقيا ما وراء الصحراء ، سمح بانتقال تأثيرات الأمازيغية إلى اللغات الأفريقية الأساسية المنتشرة في المنطقة الواقعة شمالي خط الغابة الاستوائية ومنها (الو لوفية والهوسا والسواحيلية)، وبرز كل ذلك من خلال الهجرات من الشرق إلى الغرب .

يرى الباحثون ، أن وحدة اللغة ، تشكل عنصراً هاماً من عناصر الوحدة الوطنية القومية لكل قوم وأمة، ولها أكبر عامل يولد في النفوس إرادة الانتظام في أمة واحدة . فاللغة هي عماد وأداة الثقافة لتعبر بها كتابة وشفاهة، والثقافة بالنسبة للأمة هي بمثابة الروح للإنسان لذلك كانت لغة الأمة هي الهدف الأول للمستعمرين في بسط سيطرتها الكاملة .

إن الحرف الذي تكتب به اللغة، له تأثير عميق في نفوس المتكلمين بها، فهو يمثل جزءاً من تراثهم الشعبي، ويمثل مرحلة هامة من تاريخهم وتكوينهم النفسي والعقلي. ومن خلاله يرون تاريخهم وحضارتهم ، وتنعكس فيه شخصيتهم ، وذاتهم في الماضي والحاضر. ولقد تأثرت العديد من اللغات الأفريقية بالحضارة العربية ، بل أن الكثير منها أختار الحرف العربي . وكانت أول خطوة تستهدف إضعاف وتهميش اللغة العربية أن عمدت الدول المسيطرة على تغير الحرف العربي ، بالحرف اللاتيني بحجة أن الحرف العربي لا يستطيع مواكبة التطور التكنولوجي الحديث[4].

إن تعدد اللغات في المجتمعات الأفريقية واقع معروف منذ القدم ، ففي منطقة تشاد على سبيل المثال لا يوجد تعارض بين تلك اللهجات القبلية واللغة العربية ، فاللهجات هي لغات غير مكتوبة في حين أن اللغة العربية هي الوحيدة المنتشرة في أنحاء البلاد قبيل السيطرة الفرنسية ، وهي اللغة الوطنية الوحيدة المكتوبة ، وهي أيضا لغة الدين الإسلامي الذي يدين به أغلب السكان ، فضلا عن القيمة الحضارية الخاصة بها ، وبانتشار الإسلام أصبحت إمبراطوريات البرنو منذ العهد الكانمي جزءاً من العالم الإسلامي، فانتشرت بها التعاليم الإسلامية واحتلت اللغة العربية بمملكة كانم والبرنو مكانة عالية فهي إلى جانب كونها لغة العلم والثقافة كانت لغة الدولوين ، وأهمها ديوان السلاطين لقد كانت تكتب باللغة العربية وتعد من المصادر الهامة في التعرف على تاريخ الأسر في العهد الكانمي[5].

ونظرا لقيمة الإرث الحضاري الإسلامي في أفريقيا فقد دفع بعض الزعماء الوطنيين للمطالبة باعتماد اللغة العربية ، لغة رسمية إلى جانب اللغة الفرنسية في البلاد إبان فترة الاستعمار وهذا ما أقلق السلطات الاستعمارية التي خططت لعزل الجيل الجديد من القارة الأفريقية جيل الاستقلال الذي حاول مناهضة جميع أشكال الاستعمار وصوره، وحاولت

فصله عن تراثه وتاريخه وثقافته . وبدأت في استخدام الحرف اللاتيني ، فهناك من اللغات من استجاب لسياسة التغير ، والتغريب ، كما هو الحال بالنسبة للغة التركية والتغير الذي حدث في عهد مصطفى كمال اتاتورك ، وهناك مجموعة لغات صمدت أمام الحرف اللاتيني وقاومت أبعاده عنها ، ومازالت تكتب بالحرف العربي ، في كثير من مجالات الحياة العامة ، الدينية ، والتراث الشعبي، وفي مجال محدد من وسائل الأعلام (كالصحافة) ومثال لذلك لغة الهوسا بنيجيريا واللغة الماليزية.

وكثيراً ما كان اختلاف اللغة والثقافة، عاملاً في نشوب الثورات ، والحركات الانفصالية، سواء في التاريخ القديم أم الحديث . وفي الغالب نجد أن محاولة تغير الحرف الذي تكتب به اللغة ، إلى حرف آخر تلقى دائما معارضة شديدة تنتهي إلى ثورة . وتغير كتابة اللغة من حرف إلى حرف آخر ، لا يتم عادة إلا بقوة السلطة ، فلولا العنف والقهر اللذان صاحبا كتابة اللغة الصومالية بالحرف اللاتيني ، ما أمكن فرض هذا الحرف على الشعب الصومالي وقد كان من وراء هذه العملية مخطط استعماري، تم الإعداد له في جامعة لندن منذ وقت طويل.

ولا نذهب بعيداً أو لم ينادِ دعاة الإقليمية ، ومتبنو سياسة التغريب ، الذين بهرتهم الثقافة الأوروبية ، بالتخلي عن الحرف العربي في اللغة العربية نفسها ، واستبداله بالحرف اللاتيني حتى وقت قريب وربما إلى يومنا هذا ، بل هناك من تمادى أكثر من بعض الكتاب في عدد من الدول العربية ، وطالبوا بكتابة اللهجة العامية ومنهم من تبنى الحرف اللاتيني ، وخير دليل على ذلك ، ما تفعله الآن بعض الدول الغربية من الترويج للهجة البربرية التي أسست لها المعاهد ، وكرست لها الدراسات ، وتكتب حالياً بالحرف اللاتيني في بعض الجامعات الغربية ، وعملت لها قواعد وقواميس، وموسوعات لم تعرفها هذه اللهجات قط .

وعند الحديث عن مساوئ الاستعمار الغربي في أفريقيا في المجال الثقافي ، تتصدر فرنسا الدول الاستعمارية مستغلة كل الظروف والإمكانات التي سخرتها لذلك ، وبالفعل نجحت فرنسا وكذلك بريطانيا إلى حد كبير في غرس ثقافتها ولغتها ، وفي إثارة قضايا اجتماعية وإثنية جزئية قد تجاوزها الأفارقة منذ أمد بعيد ، والقصد من تعميق والمبالغة في طرح مثل هذه

المواضيع هو خلقة بلبلة وزعزعة الأوضاع الاجتماعيـة والثقافيـة. كمـا فرضت ما يعرف بسياسة الفرنسة أو الاندماج Assimilation وذلك بصبغ المستعمرات بالصبغة الفرنسية ، وفرض الثقافة والتقاليد والنظم الفرنسية ، وقد تشرب الكثير من الشباب الأفارقة المفاهيم الدخيلة عليهم ، وانقطعـت كل صلة لهم بتاريخهم القومي ، وحضارتهم الإفريقية الأصيلة ، وأصبحوا مرتبطين تاريخيا ، وثقافيا وسياسيا ونفسيا بالأم الكبرى فرنسا .

ولكن عندما شعر الفرنسيون أن اللغة العربية تشكل عقبة في طريق انتشار ثقافتهم في البلاد ، قاموا بمحاربتها ومحاولة القضاء عليها ، ورغـم كل المحاولات للنيل من اللغة العربية والثقافة الإسلامية ، فقد ظلت صامدة لكل سياسة التغريب والاستيعاب، وأنها قابلة للتطوير والتحديث كغيرها من اللغات الحية ، وقد هيأ لها بعض المفكرين والزعمـاء الـوطنيين فرصـة الاستعمال في مجال التعليم ، وفي عام 1975 أخذوا يعدون لها "الكـوادر" للمستقبل في ظل سياسة وطنية من الواقع القومي التشادي . وأصبحت اللغة العربية منذ سنوات لغة رسمية معترف بها إلـى جانـب الفرنـسية فـي جمهورية تشاد. ونعتقد أن هذا القرار السياسي جاء كنتيجة ومطلب لغالبيـة الشعب التشادي الذي تمسك باللغة العربية وتحدى سياسة التغريب من قبـل الدولة المستعمرة. وهذا النموذج ينسحب على عدد آخر من الدول الأفريقية التي تكابد وتصارع الأزداوجية الثقافية أو ثنائية اللغة، ونعتقد أن التجربـة التشادية ستكون المنهج والحل المناسب في التعـايش والتفـاهم بأسـلوب حضاري يحفظ لكل طرف مكانته .

ولعل أكثر اللغات الأفريقية ، تأثرا باللغة العربية في غرب أفريقيا ، هي لغة الهوسا ، وأن الألفاظ التي دخلت الهوسا ، ألفاظ كثيرة العدد تربـو على الألفين وخمسمائة مفرد . تتوزع بـين المفـرد الـديني ، والمفـرد التجاري، وبسبب هذا الغنى في المفرد المستضاف ، فلغة الهوسـا تعتبـر وإلى اليوم أهم لغات غرب أفريقيا تأثرا باللغة العربية ، وإن أسماء البضائع والسلع التجارية ، والعقود والأعداد ، وبعض المصطلحات التي تقوم علـى المعايير الأخلاقية ، عربية الأصل والجذور والاشتقاق .

وفي شرق أفريقيا كتبت السواحيلية بالحرف العربي الذي اسـتطاع أن يؤثر فيها ويغنيها بالمفردات والمصطلحات، واكتسبت من العربية العديد من السمات الصوتية والصرفية والنحوية والأدبية. وإلـى جانـب اللغتـين

السواحيلية والهوسا، كانت اللغة العربية تحظى بمكانة سامية لدى الشعوب الإسلامية على وجه الخصوص كونها اللغة التي عن طريقها يتم معرفة أصول الدين الإسلامي ودراسة القرآن والحديث والفقه والتفسير، وكان للمعلم العربي وضع وتقدير خاص في نفوس المتعلمين حتى سيطرة التعليم الغربي، الذي تجاهل الثقافة العربية وهمش دور المعلم العربي الأفريقي[5].

إن التأثير اللغوي للحضارة العربية في الثقافة الأفريقية يمثل ظاهرة إيجابية وملموسة ، وتشير بعض المصادر الغربية الموضوعية المنصفة إلى أن المسلمين عندما وصلوا في القرن الثامن الميلادي إلى بلاد السودان ، تركوا كتابات رغم كونها غير كاملة ، إلا أنها تبقى الوحيدة ، والمتوفرة ، لإعادة كتابة تاريخ أفريقيا في ذلك العصر ، بينما الكتابات الأوروبية التي تناولت تاريخ أفريقيا ، بدأت متأخرة جداً وظلت متعصبة في طرحها للثقافة العربية في إفريقيا.

واستناداً على الواقع المعاش وحتى من منطلق معطيات العلائق التاريخية والتغيرات الحالية ، فإن المسؤولية التي تقع على عاتق العرب الأفريقيين عموما تُشكلُ دوراً مهماً في البحث عن مصالحهم وعن حلفائهم العرب الطبيعيين الذين تجمعهم روابط جغرافية وتاريخية وحضارية مصيرية وتواجههم تحديات حاضرة ومقبلة، ومن المهم ضرورة وضع آليات جديدة تتماشى وتطوير سبل التعاون العربي الأفريقي ، بما يعزز آمال القارة وأهدافها في الوحدة ، والتقدم وصون استقلالها السياسي والاقتصادي والثقافي الأصيل . وأعتقد أنه من المفيد التركيز على تعدد مثل هذه اللقاءات العلمية الجادة ، وتبني أسلوب الحوار في بلدان الساحل والصحراء والتي أغلبها تتحدث اللغة العربية .

إن كل التجمعات الأفريقية في شرق القارة ووسطها وغربها هي هياكل وفضاءات، ينبغي أن تعزز وتسند الصرح الكبير الذي أسسه القادة السياسيون الأفارقة حين اتخذوا المبادرات التاريخية وناضلوا من اجلها في تأسيس الإتحاد الأفريقي في 1999/9/9 بمدينة سرت الرباط الأمامي والذي يعد خطوة هامة نحو هدف أسمى وهو توحيد القارة بأكملها بصورة فعلية بحيث يمكنها أن تتوافق والفضاءات الكبرى التي لا تتعامل مع الدولة

القطرية. إذا فمسؤولية العلماء والباحثين عظيمة ومهمة وشاقة في ذات الوقت ، وينبغي وضع برامج علمية وخطط مستقبلية من خلال تبادل المواضيع والأفكار ، وتعميق البحوث الهادفة لتأصيل اللغة والثقافة العربيتين ، وإن تحدي الثقافات الغربية المستوردة التي تهدف إلى طمس الهوية العربية الأفريقية ، لا تجدي معها رفع الشعارت والأماني دون أخذ زمام المبادرة . فالصراع اليوم يستهدف المقومات الحضارية التي عمودها اللغة والثقافة والتاريخ ووسيلته الأعلام المبرمج الموجه.

فاللغة العربية أحد اللغات العالمية وهي تدرس في أغلب الجامعات الأجنبية خارج الوطن العربي، وأهميتها تتعاظم والدليل على ذلك دخولها المحافل الدولية ، كلغة رسمية في الأمم المتحدة، وغيرها من المنظمات الدولية ، واستطاعت اللغة العربية استيعاب كل المفاهيم والأفكار والمصطلحات المختلفة التي تدعو إلى التطور الحضاري فاللغة العربية بدأت تستعيد مكانتها تدريجياً بين الشعوب الإفريقية.

وفي هذا الإطار يجدر الإشادة بالمحاولة الواعية التي تقوم بها جمعية الدعوة العالمية الإسلامية من دعم للغة العربية والإسلام في كل أصقاع الدنيا وخصوصا في القارة الأفريقية، وما يقوم به حاليا بنك التنمية الإسلامي بجدة بالتعاون مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ممثلة في مكتب تنسيق التعريب بالمغرب ، ومعهد الخرطوم الدولي للغة العربية ومع المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم ، من اجل تطوير الحرف العربي الذي تكتب به لغات الشعوب الإسلامية وصناعة الرقنات وحروف الطباعة لنشر الحرف العربي في كل اللغات التي تكتب به وعلى أوسع نطاق مصحوبا بحملة نحو الأمية ، وهذه الجهود وغيرها ستعود للحرف العربي مكانته[7]. التي كانت عليها قبل الهجمة الاستعمارية في القرن 19.

ومن أجل دعم وتأكيد اللغة العربية ينبغي: تشجيع البحث والدارسين للثقافة العربية، في هذه الدول من خلال طبع ونشر المخطوطات والبحوث التي تخدم عراقة وحاضر ومستقبل اللغة العربية في مختلف أقطار القارة الإفريقية.وهذه الدعوة لا تزعم ولا تهدف لتعريب القارة كما فعلت الدوائر الغربية حين فرضت لغاتها الأجنبية، ولكن المؤمل هو تأسيس أرضية للحوار والبحث عن سبل تضمن الحقوق اللغوية لكل لغة في إطار

التنوع الثقافي سواء في اللهجات أو حتى تعدد اللغات الـذي ينبغـي أن لا يضعف الوحدة الوطنية، فالتعصب للغة أو ديـن أو قوميـة أو التـشيع أو التحزب هو الذي يدمر كيان الأمة، ويجعلها تعيش فـي التيـه والـضياع وبالتالي يجد الأجنبي الفرصة في التدخل وفرض ثقافته وأنماطه الغربيـة. فالشعوب الأفريقية التي واجهت وتحدت القوى الاسـتعمارية علـى مـدى القرون الماضية قادرة على حل مشكلة التعدد والتنـوع الثقـافي بمنهجهـا بإرادتها وبأسلوبها الذي يتسجم وظروفها ومتطلباتها وكيفية التعامـل مـع الأجنبي بطريقة حضارية تحفظ لكل جماعة وجودها ومكانتها.

وتشير بعض المصادر التاريخية أن الغـزو اللغـوي ونعنـي بـه استعمال لغة أجنبية أي لغة المستعمر ناتجة عن الضعف الاقتصادي للدولة والذي سيتبعه التدخل السياسي ثم الغزو الثقافي ، فعلى سبيل المثال حـين تراجعت اللغة الفرنسية في العديد من دول أوربا التي كانت سـائدة فيهـا خلال القرن التاسع عشر لم يعد لها من مقومات البقاء أمام الصحوة والمـد القومي في روسيا، وألمانيا واسبانيا وهيمنة بريطانيا على المسرح الدولي حتى نهاية القرن التاسع عشر ، هذا الاندحار الذي شهدته للغـة الفرنـسية اتجه نحو الدول الأضعف وخاصة في أفريقيا لتعوض خسارتها في أوربـا وآسيا. وما من شك أن تنافس الغرب في الترويج لثقافته ولغاتـه يـشكل حاليا يقظة القوميات الأفريقية السياسية والثقافية واللغوية والمطامح المكبوتة التي تعمل جميعها على العودة إلى اللغات الأفريقية الأصيلة والتي من بينها اللغة العربية[8] .

ومن أجل تصميم للغة العربية في القارة ينبغي التركيز على قطاع التعليم يبدأ منه العمل على تطوير المناهج التعليمية في المراحل المختلفـة، وذلك بما يضمن شيوع انتشارا للغة العربية بالطرق العلمية المنهجية كيفـاً وكماً وبطريقة سلسلة، من أجل بناء جيل قادر على التعامل يتعامـل مـع الثقافات الأخرى بكل ثقة.

كذلك العمل على تبادل المعلومات التي تتعلق بالثقافة العربية ، من خلال قاعدة البيانات وشبكة المعلومات (الإنترنت) بين الجامعات والمراكز البحثية ، وتشجيع الطلاب الأفارقة في إعداد رسائلهم وأطروحاتهم في هذا

المجال في المجالات العربية على أن ينخرط الطلاب الأفارقة ويندمجوا في الجامعات العربية كي يكتسبوا الخبرة والمهارة.

كما ينبغي تبني برامج علمية إعلامية معدة باللغة العربية ، عبر وسائل الإعلام المختلفة التي تصل للمواطن مباشرة في المدن الكبرى والقرى النائية ، تكون بلغة عربية سهلة وتخاطب الفئات الاجتماعية ذات الثقافة المتواضعة.

وخلاصة القول أن الثقافة مرتبطة بوجدان الأمة وبتاريخها وموروثها الحضاري، وهي الهدف المباشر من قبل القوى الأجنبية في أحكام سيطرتها على ثروات القارة، فالعامل الاقتصادي تاريخياً هو المسئول الأول في الصراع المحموم والتنافس بين القوى الكبرى، في الحصول على مستعمرات غنية بمواردها وأسواقها الاستهلاكية. وأن المنقذ لهذا الوضع هو البناء الاقتصادي المرتكز على الفضاء الأفريقي وفق برامج وتخطيط سليم. وأن تعزيز وتعقد المصالح الاقتصادية بين شعوب القارة شمالها وجنوبها كفيل بإعادة الثقة لشعوبها في مراجعة علاقاتها بالغرب وخصوصاً في المجال الثقافي وإعادة النظر في اللغات الأجنبية الوافدة والرفع من مكانة اللغة العربية واللغات المحلية من اجل الحفاظ على الهوية الأفريقية.

الهوامش

[1] – عبد الله عبد الرازق إبراهيم، المسلمون والاستعمار الأوربي لأفريقيا، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989.

[2] – جيمس ريتشادسن، ترحال في الصحراء، ترجمة الهادي ابولقمة، منشورات جامعة قاريونس بنغازي، 1993. ص. 19.

[3] –نعيم داج ، حضارة الإسلام وحضارة أوربا في افريقيا الغربية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص 8.

[4] – محمد على نوفل التعدد اللغوي، مجلة الدراسات الأفريقية، العدد الواحد والعشرون، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، ص 23.

[5] – عبد الله نجيب محمد، الساميون ولغاتهم في أثيوبيا، مجلة الدراسات الأفريقية، العدد الواحد والعشرون، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، ص 14.

[6] – راجية محمد عفت، اللغة السواحيلية وتحديات القرن الحادي والعشرين ، بحوث مؤتمر افريقيا وتحديات القرن الحادي والعشرين، جامعة القاهرة ، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، المجلد الثاني 1997، ص 428.

[7] – أعمال ندوة ، مستقبل اللغة العربية في تشاد، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، 2003.

[8] – محمود متولي، مقدمات وأبحاث تتناول علم الاجتماع والإيديولوجية والبحث العلمي والتاريخ واللغة والتراث في الوطن العربي، الدار العربية للكتاب، 1982ص 68.